



DOI: <https://doi.org/10.34118/ajsssr.v8i2.4089>

رسول الله محمد ﷺ المدافع الأول عن حقوق المرأة

Prophet Muhammad; The Ultimate Defender of Women Rights

Ibtissam baydoun ⁽¹⁾.

إبتسام إبراهيم بيضون ⁽¹⁾ الجامعة العالمية، (لبنان)، ibtissam.baydoun1@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2024/10/21؛ تاريخ القبول: 2024/12/15؛ تاريخ النشر: 2024/12/31

ملخص:

حُرمت المرأة في العصور الغابرة من حريتها وميراثها بل ومن أبسط حقوقها، واستضعفت وانتهكت في كثير من المجتمعات، فجاء رسول الله ﷺ وعلم الناس الشرع المنزّل، وفيه صون للمرأة ولملكاتها، وساواها بالرجل في العمل الصالح، ويبيّن أن الكريم من يكرم المرأة ويرفق بها، وعلم أن الإحسان إليها طفلة يُدخل الجنة، وإكرامها أختًا وزوجة هو نهج خيار المسلمين، وبرّها أمّا وجدة واجب في الإسلام وطريق المحسنين، وكم تحتاج المرأة المسلمة بل والمجتمع الملتزم لقراءة واعية لما بين الأسطر لفهم الحكم والحكم والتسلح بالعلم للرد على المشوّشين والمشوّشين

الكلمات المفتاحية: الحرية، صون، إحسان، حقوق، واجب.

Abstract:

Archaically, women were deprived of their freedom, inheritance, and the most basic rights. They were often marginalized and subjected to abuse. Then came Prophet Muhammad ﷺ, with the divine law, that protected women and their property. He emphasized equality between men and women in terms of rewards for good deeds, and highlighted the nobility of those who honor and treat women with kindness. Muslim women, and indeed the entire committed community, need a conscious reading between the lines to understand the rulings and wisdom, and to be equipped with knowledge to refute the allegations of the misled and the misleading.

Keywords: Freedom; Protection; Charity; Rights; Duty.

1. مقدمة:

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على محمد المصطفى. أما بعد، يصبو الفرد إلى الحرية من نعومة أظفاره، فيميل إلى فعل الأشياء كما يريد ومتى يريد، لكن سرعان ما تتكشف له مسؤوليات وحدود لحيته لا بد له من مراعاتها، فالحرية الفردية تقف عند حدود الأوامر الإلهية: سواء عَقَلنا الحكمة منها أم لا، كما تقف عند حدود الإضرار بالنفس أو بالغير، ثم هذه المسؤوليات تظهر حقوقاً لله أو تبعات للعباد.

1.1 التعريف بالبحث:

يطيب لي أن أقدم نظرة علمية مدعومة بالبراهين لنهج حبيبنا محمد ﷺ، القائم على العدل وإعطاء كل ذي حق حقه، الذي قال: "إني أحرّج عليكم حق الضعيفين المرأة واليتيم" (البيهقي، السنن الكبرى، 7: 770)، وهو المدافع الأول عن حقوق المرأة القائل: "رفقاً بالقوارير" (الحميدي، مسند الحميدي، 2: 313)، فمن ذكاء الإنسان أن يزين أقواله وأعماله وآراءه بميزان الشرع ويعلم أن السلامة في الدين لا تعدلها سلامة، وأن قول النبي في الدين فوق كل قول، وهدية فوق كل هدي، فعلى المسلم أن يصون نفسه ولسانه من كل ما فيه معارضة للدين ويحفظ قلبه من سوء الفهم للأحكام التعبدية ويتبصر في الحكمة منها.

2.1 إشكالية البحث:

خاض الناس في هذه المباحث خوضاً مريباً، فمن تابع للهوى ينثر أهواءه في المجتمع إلى حاطب ليل يملأ الأجواء بأرائه دون وزنها بميزان الشرع الحكيم، فكان لا بد من وقفة وسطية معتدلة، ننظر فيها في روعة اقوال وأفعال وأحوال سيدنا محمد لنتلمس الطريق الحق وننبذ الأهواء المردية، لذا ستنحصر إشكالية البحث بالإجابة على هذه التساؤلات:

- الحرية هل تعني التحرر من كل القيود والحدود؟
- ما هي القيود والحدود التي تميز الحرية عن التفلت؟
- حرية المرأة في الإسلام ما هي حقيقتها؟ وما هي حدودها؟

3.1 الدراسات السابقة:

لا شك أن الدراسات السابقة كثيرة، لكن نعايش استمرار الفهم السقيم في مجتمعاتنا مما يعني بوضوح عدم كفايتها، وأغلب هذه الدراسات تناولت وتأثرت بالممارسات المريضة الشائعة غير المتناسبة مع تعاليم الشرع الحنيف فوصلت إلى نتائج مشوهة باطللة، يكفي جولة صغيرة على مواقع الشبكة الإلكترونية للتأكد من حاجة المسلمين إلى كتابة عادلة في هذا الأمر في خضم هذا الغلو والتقصير، ومنها:

_ موقع DW تحت عنوان "حجاب الفتيات، حرية شخصية أم انتهاك للطفولة"، الكاتبة رشا حلوة بتاريخ 2018/4/11، وفيه تشويه لحقائق ثابتة.

_ موقع سبوتنك عربي، تحت عنوان "حجاب المرأة... إجبار أم اختيار... حرتي ليست ملكًا لقرار أو حكم مسبق"، بقلم يزن كلش 2018م، وقد تجلت بهذا البحث أهواء الكاتب.

_ رام الله، مجلة دنيا الوطن وسموه "الحجاب ليس فريضة إسلامية وإنما مجرد عادة"، الأثر 2013م، وفيه من الأحكام المتعارضة مع الحق ما يظهره عنوانه.

4.1 أهمية موضوع البحث:

تنبع أهمية البحث من كون المرأة نصف المجتمع، ومُكوّن رئيس في الأسرة، وعضو فعال في عملية تربية الأطفال وحضانتهم، ولا شك أن من حَظِيَ بحقوقه كان أقدر على أداء واجباته، كما أن هذا الموضوع كثر من أساء الفهم فيه، وبنى أحكامه على ممارسات شاذة من أشخاص تطرفوا في أفعالهم؛ فكان لا بد من قراءة منصفة لحقوق المرأة وواجباتها، جلاءً لمكانتها ودورها، وإظهارًا لعظمة النبي الأكرم محمد ﷺ وروعة الإسلام.

5.1 أهداف البحث:

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص/83) لذا فأهداف بحثي:

أ- نشر العلم والمفاهيم الصحيحة: سأحاول تفنيد أقوال المخالفين بعون الله وإظهار تحريفاتهم وفهمهم السقيم للأحكام المنزلة.

ب- حث الناس على معرفة حدود حرياتهم، فقد قال الله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة/105) حيث ينطلق الداعي إلى الله تعالى لبناء الفرد بالمفاهيم السليمة والعمل الصالح؛ وصولاً إلى مجتمع ملتزم راقٍ بالأخلاق السامية.

6.1 أسباب اختيار الموضوع:

نحن في زمانٍ عمّت فيه الدعوى الباطلة وفشا فيه الكذب، استأنس كثيرون بالباطل واستوحشوا من الحق، لكن شيوع الباطل لا يجعله حقاً، فالباطل ظلامٌ لا يزولُ إلا بانتشار نور العلم، فبالعلم ندرأ الشبهات المنتشرة بين الجاهلين بحقيقة تعاليم محمد ﷺ.

7.1 منهج البحث:

سعيت أن ينحصر منهجي في البحث بالمنهج الآتية:

- 1- المنهج "الاستردادي التاريخي"، فننظر في التاريخ وما كان يحصل في بيت رسول الله ﷺ.
- 2- المنهج "الاستدلالي"، لإثبات صحة ما أذكر من أحكام بالأدلة النقلية.
- 3- المنهج "التحليلي التفسيري"، لبيان معاني بعض الكلمات في البحث.

8.1 خطة البحث:

تتألف خطة البحث من مقدمة وفصلين فيهما مباحث وخاتمة وملحق. المقدمة وتتضمن ما يلي: التعريف بالبحث، وإشكالية البحث، وأهمية موضوع البحث، وأسباب اختيار الموضوع، وصعوبات العمل، والدراسات السابقة، وأهداف البحث، ومنهج البحث، وخطة البحث.

• تعريفات وفيها:

- 1- بيان مفهوم الحرية.
- 2- بيان مفهومي الحقوق والواجبات.
- 1- ضوابط الحرية الفردية
- 2- الحرية الشخصية لا تعني الانحلال
- 3- الحذر من المشوشين

● فصل ثان: الإسلام دين أنصف المرأة

- 1- الرسول ضمن حق المرأة في الميراث والممتلكات
- 2- مساواة المرأة للرجل في العمل الصالح

● فصل ثالث: رسول الله رحمة مهداة

- 1- وصايا رسول الله بالمرأة
- 2- الرسول معلم بالحال والمقال.
- خاتمة: تتضمن أهم النتائج والتوصيات.
- ملحق: يتضمن فهرست المصادر والمراجع.

2. تعريفات:

غالبًا ما يظهر الخلاف في الأفكار والأفعال بسبب خلاف في المفاهيم والأحكام، لكن من أنصف وعدل يشهد أن رسول الله محمد ﷺ دافع عن حقوق المرأة التي كانت مهضومة بحاله ومقاله، وحافظ على عزّها وكرامتها.

1.2 بيان مفهوم الحرية:

الحرية قدرة الإنسان على فعل الشيء أو تركه بإرادته الذاتية، وهي ملكة خاصة يتمتع بها كل إنسان عاقل، ويُصدر بها أفعاله بعيدًا عن سيطرة الآخرين لأنه ليس مملوكًا لأحد من البشر في نفسه، فنحن أحرار عن الرق إذ لا يملكنا مخلوق.

لكن هل "الحرية" تعني الإطلاق من كل قيد؟ هل الحرية تعني أن يفعل الإنسان ما يشاء متى شاء؟ والجواب: لا يقول عاقل بهذا، بل هذه حرية غير العاقل كالمجنون أو الهيمية، لكن البشر عامة لهم مالك حقيقي، زَيَّتهم بالعقل، فلا بد أن تتوقف حرية العبد عند حدود الحرمات التي شرعها الشارع وعند حدود حريات الغير.

والحرية في اصطلاح التعريفات، (الشريف الجرجاني، 1403هـ، ص116). أهل الحقيقة هي الخروج عن رق الكائنات وقطع جميع العلائق والأغيار، فهو حر عما سوى الله.

2.2 بيان مفهومي الحقوق والواجبات.

الشيء الحق أي الثابت حقيقة، ويستعمل في الصدق والصواب، أيضا يقال: قول حق وصواب، وفي اللغة: هو الثابت الذي لا يسوغ إنكاره،

وفي اصطلاح أهل المعاني (الشريف الجرجاني، 1403هـ، ص122). هو الحكم المطابق للواقع، يطلق على الأقوال والعقائد والمذاهب باعتبار اشتغالها على ذلك، ويقابله الباطل. وأما الواجب فهو ما أوجبه الله على العباد، ويكون في فعله ثواب وفي تركه عقاب.

3. فصل أول: الحرية الفردية

نحن المسؤولون عن تربية نشء صالحٍ على أسسٍ علميةٍ شرعيةٍ صافيةٍ خاليةٍ من التطرفِ الأعمى والعصبيةِ المنتنة، يعرفُ كيف يميزُ بين الاعتدالِ وبين الإفراطِ والتفريطِ، فلنُعَلِّمُ أولادنا ذكورًا وإناثًا أنَّ الصحيحَ ما صححه الشرعُ والقبيحُ ما قَبَّحه الشرعُ، فاختلال المفاهيم ثمرة الجهلِ المرة، وظلمُ المرأةِ يحصلُ من رجلٍ جاهلٍ بالدينِ بالأغلبِ ربَّته امرأةٌ جاهلةٌ بالدينِ، فهلَّا علَّمنا أنفسنا لنُحسِنَ تعليمَ أولادنا، وبالتالي مجتمعاتنا.

1.3 ضوابط الحرية الفردية

إقرار الإسلام للحرية لا يعني بطبيعة الحال أنه أطلقها من كل قيد وضابط، لأن الحرية بهذا الشكل أقرب ما تكون إلى الفوضى، التي يثيرها الهوى والشهوة، ومن المعلوم أن الهوى يدمر أكثر مما يبني، ولذلك مُنع الإنسان من اتباعه، فقد قالوا: "من اتبع الهوى هوى" أي تردى في أودية الأهواء والشهوات، فالعاقل يعلم أنه لا بد من قيود وحدود للحرية الشخصية، وقد وضع الإسلام قيودًا ضرورية للحرية الفردية تضمن حرية الجميع، وتتمثل الضوابط التي وضعها الإسلام في الآتي:

- ألا تفوت حقوقًا أعم منها، فلا حرية في معصية الله ومخالفة أمره ونهيه.

- ألا تؤدي حرته إلى الإضرار بحرية الآخرين.

وبهذه القيود والضوابط ندرك أن الإسلام لم يقر الحرية لفرد على حساب الجماعة، كما لم يثبتها للجماعة على حساب الفرد، ولكنه وازن بينهما، فأعطى كلاً منهما حقه. وقد أثبتت الوقائع بأن الشرع لم يُمنع الفرد من شيء إلا والحكمة في تركه، ولم يوجب الشرع شيئاً عليه إلا والحكمة في فعله.

2.3 الحرية الشخصية لا تعني الانحلال

لا يُلتفت إلى وسواس خنَّاس يدَّعي أن الإسلام ظلم المرأة وقيدَها، يدعو كاذبًا إلى التحرر وإنما يدعو حقيقة إلى الانحلال والتفلة، لرخص الأنثى عنده، فيتمتع بها سافرةً منحلة، فالجاهل يسمي الفجور حرية، والانغماس في المعاصي انطلاق، وما ذاك إلا لجهله واختلال

موازينته، فهو يطلق على ذل المعصية والرذيلة اسم "التحرر" و"الحرية الشخصية"، فالمساكنة عنده "حرية شخصية" وما هي في الحقيقة إلا زانية خلعا ثوب الحياء والستر. وبالمقابل يدعي الجاهل أن قوامية الرجل معناها إباحة ظلم المرأة وإيذائها وضربها بلا حق، والصواب أن كل هذا حرام على المسلم، صحيح أن من الناس من خاب في مساره فشوة ونقر، ورسم بسوء ممارساته صورة ممسوخة عن مكانة المرأة في الإسلام، مما سمح لأعداء الدين المترصين بنا الخوض في مجال الطعن المغرض بتشويهه متعمد مدروس؛ والحقيقة الساطعة أن الإسلام دين أنصف المرأة وأعزها وأكرمها وحث وحرض الأب والأخ والزوج على الإحسان إليها والرفق بها، وأمر الابن ببرها في كل ساعة من كل يوم، وتوعده بالعذاب على العقوق إن آذاها، لا كما يفعل البعض من تكريمها في أول يوم من أيام الربيع ونسيانها في الصيف والشتاء والخريف.

3.3 الحذر من المشوشين

عجبت لمن يزعم مخاطبة العقل وهو منغمس بشرب الخمر المضيق للعقل هرباً من مادية حياته وتعاسها.

عجبت لمن ينتقد الحجاب ويعتبره تقييداً للمرأة وهو يعيش في مجتمعات رخيصة تتمتع بالفجور وتنغمس في ممارسات منحرفة تُستعمل فيها المرأة كسلعة لمتعة الرجال برخص وإذلال،

والأعجب أنهم يُنادون بالمساواة مع أنهم ينظرون بدونية إلى المرأة، فهي أداة متعتهم.

عجبت لمن ينتقد تعدد الزوجات وهو واقع في تعدد العلاقات المحرمة،

عجبت لمن يرى الالتزام تزمناً ولا يرى الانحلال رخصاً وهواناً.

عجبت لمن يترك الشرع المنزل الحكيم ليتكلم بآراء ودعوات يُمليها عليه شيطان رجيم.

عجبت لمن يترك لذة الطاعة وسكينة العبادة ليدعو إلى حياة لاهية عابثة، ظاهرها هناء وسعادة وحقيقتها ضياع وتعاسة.

4. فصل ثان: الإسلام دين أنصف المرأة

1.4 الرسول ضمن حق المرأة في الميراث والممتلكات

بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَجْتَمَعِ جَاهِلِي، الْمَرْأَةُ فِيهِ لَا تَرِثُ الزَّوْجَ وَلَا الْأَبَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّمَا النِّسَاءُ شِقَاقِقُ الرِّجَالِ" (أحمد بن حنبل، مسند أحمد، حديث (26195)، 43: 265). وأنصفها الشارع وضمن لها حقوقها المالية بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَجِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَتَذَهَبْنَ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ... (الآية)﴾ (النساء/19)، ولم يكن هذا في مجتمعات العرب فحسب، بل أيضاً في المجتمعات الغربية، ففي أقطار الأرض كانت المرأة لا تورث، كي لا يذهب المال إلى الغرباء، بل تُتوارثُ هي نفسها بعد موتِ الزوجِ وكأنها متاع، فيرثها ولده بعده ويجامعها، وكانت تحرق حية في مجتمعات أخرى بعد موت عشيرها، هذه هي التبعية التامة التي دفنوا فيها وجود الأنثى المعنوي قبل الدفن الحسي لها تحت التراب، فجاء رسول الله ﷺ كافلاً لها حقها، نافضاً عنها تراب الذل، فأضححت المسلمة مُعززة مُكرّمة مُصانة.

وأوجب الشرع نفقتها على الأب والابن والزوج صوتاً وإكراماً لها عن مكابدة مشقات العمل والاكْتساب، دون أن يحرم عليها العمل والكسب الحلال وأوصاها الشارع كما أوصى الرجل بطلب الحلال، ومراعاة الحدود الشرعية، وصان لها مالها وممتلكاتها، قال الله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَ﴾ (النساء/32).

2.4 مساواة المرأة للرجل في العمل الصالح

ساوى الله عزّ وجلّ بين الذكر والأنثى في الجزاء على العمل الصالح ولم يفرّق بينهما حيث قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ نَقِيرًا﴾ (النساء/124) هذه التسوية من الله تعالى في الجزاء على العمل الصالح تدل على حكمة عظيمة، فمع الفروقات الكثيرة بينهما من حيث القوة والبنية والطبيعة؛ التي اقتضت تفريقاً بينهما في بعض الأحكام، لكن المرأة نصف المجتمع، وهي الأم والأخت والبنات. ثم إن تشجيع الإسلام على الاهتمام بأمر المرأة أثمر في بناء شخصيات عظيمة، ومن نظر في مناقب الكثيرات اللواتي نصرن هذا الدين، رأى ما يدل على وعي ونضج، إذ ساهمن في شؤون الحرب والسلم ومنهن من بلغت الصفوف الأولى في مواجهات تاريخية، بل وشاركت المرأة في بيعة العقبة الكبرى وبيعة الرضوان تحت الشجرة، ولا يخفى ما كان لهاتين البيعتين من أثر في

الاستقرار السياسي، ومشاركة المرأة فيهما إنما تدل على الاعتراف بدورها الفاضل في المجتمع، وها هي الصحابية أم شريك تدور على نساء قريش تدعوهم إلى الإسلام، وهذه أم سليم كانت تسقي المصابين في المعارك وتداوي الجرحى، وهذه أم الإمام الشافعي رضي الله عنه تربي يتيمًا وتحثه على الاهتمام بالعلم حتى صار عالم قريش يملأ طباق الأرض علمًا، وهنا يظهر لنا الحكمة من تعدد زوجاته ﷺ: لينتشر هذا الدين الحنيف بين النساء من خلالهن، حتى صارت أم المؤمنين عائشة أफقه نساء هذه الأمة، حتى قيل فيها: "ما رأيت امرأة كانت أعلم بطب ولا بفقهِ ولا بشعر من عائشة" (الطبراني، المعجم الكبير، 23: 182)، فلا مانع من أن تصبح المرأة فقيهة أو مجتهدة، أو من أن تصل إلى أعلى الوظائف.

5. فصل ثالث: رسول الله رحمة مهداة

1.5 وصايا رسول الله بالمرأة

هل تعلمون أن النبي محمد ﷺ هو من خطّ لنا بحروف عريضة قانون حماية المرأة في مالها وعرضها وجسدها وروحها؟؟؟ نعم... هو الذي أنصفَ المرأةَ بعد أن كانت توأدُ طفلةً وتغتصبُ شابةً وتُتوارثُ بعد موتِ الزوج، فقد جاء بالإسلام، وهو دينُ عدلٍ وإحسانٍ وسمو أخلاق؛ هذا كلّه وأكثر منه نجده في رحابِ الشرعِ المنيف، وقد علّمنا رسول الله ﷺ بحاله ومقاله، فقد جاء بالتعاليم المنزلة وطبقها فأعطى كل ذي حق حقه، وزاد في الإحسان والإكرام.

بعث الله عزَّ وجلَّ رسوله ﷺ القائل: "ومن يعدل إذا لم أعدل" صادقًا بالحق أمرًا به، فأخرج الله عزَّ وجلَّ به المسلمين من الظلمات إلى النور، داعيًا إلى العدل، بُعث بين أناس كان من بُشّر منهم بالأنثى يسود وجهه من غيظه؛ ويسارع إلى وأدها حية، فإن تكرم عليها بأن أبقاها على قيد الحياة أذاقها أنواع الهوان. وقد أولى نبي الرحمة ﷺ المرأة بالاعتناء، وأوصى بها بقوله ﷺ: "رفقًا بالقوارير" (الحميدي، مسند الحميدي، 2: 313)، وقد رفع الله تعالى المرأة في دينه من موءودة في التراب، محرومة من الميراث، محكومة بانتقالها من الرجل إلى ابنه كما تنتقل ملكية غنمه وماله وبيته، إلى قارورة يُراعها الشخص أشد مراعاة حتى لا تُكسر، فما أروع من تعبير في مراعاة المرأة الحساسة العاطفية، جاء رسول الله ﷺ أمرًا: "استوصوا

بالنساء خيراً" (البخاري، صحيح البخاري، حديث (3331)، 4: 133). سواء كانت رحمًا أم لا، محرِّجًا حقها على الظالم من كان وأين كان؛ بقوله ﷺ: "إني أرحج عليكم حق الضعيفين المرأة واليتيم" (البيهقي، السنن الكبرى، حديث (15699)، 7: 770). ويزداد الحُضُّ ويعظم الأجر إن كانت الموصى بها رحمًا من النساء، فالمرأة هي الأم التي جعلها الله تعالى أعظم الناس حقًا على الرجل؛ فقال ﷺ: "أعظم الناس حقًا على الرجل أمه" (الحاكم النيسابوري، حديث (7338)، 4: 193)، وهي الزوجة التي قال عنها النبي ﷺ: "خياركم خياركم لنسائهم" (الترمذي، حديث (2142)). وقال أبو عيسى: حديث حسن صحيح، فجعل الإحسان إليها من أسباب ارتقاء الزوج في الخير، وهي البنت التي من ربَّها تربية صالحة كانت سببًا لدخوله الجنة فقال ﷺ: "ما من مسلم تُدرك له ابنتان فيُحسن إليهما ما صحبته أو صحبهما إلا أدخلتاه الجنة" (أحمد بن حنبل، مسند أحمد، حديث (3424)، 5: 396)، وهي الخالة التي قال عنها ﷺ: "الخالة بمنزلة الأم" (البخاري، حديث (4251)، 5: 141). وهي الجدة التي هي من الأمهات وإن علت، والأخت والعممة وقد جعل الله لكل واحدة منهن حقها ومكانتها.

2.5 الرسول معلم بالحال والمقال

كان رسول الله ﷺ كافيًا للمرأة حقها بحاله ومقاله، ثم المسلمون عامة مأمورون بالتأسي به ﷺ، فكيف يأتي مغرفهو الذي قالت فيه زوجته حين سُئلت عن خلقه: "كان خلقه القرآن" (أحمد بن حنبل، حديث (24601)، 41: 148)، فكل خصلة خير أمر بها القرآن الكريم كان رسول الله ﷺ وسلم أعلنها، فهو أكرم الناس، وأعدل الناس، وأزهد الناس، وخير الناس. وهو من قال: "خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي" (الترمذي، سنن الترمذي، حديث (3895)، 6: 192). أي أحسنكم معاملَةً للزوجة، وقد قال الله تعالى: ﴿وعاشروهن بالمعروف﴾ (النساء/19)، والمعروف كلمة جمعت معاني التحلي بمكارم الأخلاق في معاملة الزوجات، من صبرٍ على ما قد يبدر منهن، أو تقصيرٍ في أداء واجباتهن، ومن تورعٍ عن ايذائهن في القول أو الفعل، وإنصافهن بتأمين ما لهن من الحقوق، فمن صور معاشرته ﷺ لنسائه بالمعروف خدمته لأهله فقد سُئلت السيدة عائشة رضي الله عنها ما كان النبي يصنع في بيته فقالت: "كان يكون في مهنة أهله - أي خدمتهم - فإذا حضرت الصلاة خرج فصلي". (أحمد بن حنبل، حديث (24948)، 41: 423).

ومن دلائل حسن العشرة ولطف الطبع ما قالتها رضي الله عنها: "وما رأيت رسول الله ﷺ عابَ طعامًا قط، إن اشتهاهُ أكلهُ وإلا تركهُ". (أحمد بن حنبل، مسند أحمد، حديث (10212)، 16: 159).
ومن دلائل حسن العشرة ما كان يفعله ﷺ مع السيدة عائشة رضي الله عنها وهي الزوجة الحديثة السن، فقد قالت: "والله لقد رأيت رسول الله ﷺ يقوم على باب حجرتي والحبشة يلعبون بالحراب في المسجد ورسول الله يسترني بردائه لأنظر إلى لعيمهم من بين أذنيه وعاتقه، ثم يقوم من أجلي حتى أكون أنا التي أنصرف" (الطبراني، المعجم الكبير، 179: 23)، وما ذاك إلا تطييبًا لخاطرها، ولأجل إدخال السرور إلى قلبها، ومن دليل تواضعه مع زوجته ﷺ مسابقتها لعائشة رضي الله عنها والتهاون لها لتسبقه، ومشاورته لأُم سلمة رضي الله عنها في صلح الحديبية، (البيهقي، حديث (10169)، 10: 404). فالهناء والسناء لمن تأسى به ﷺ قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ (الأحزاب/21) فإن فلاح المسلمين بالتأسي به.

ومع روعة هذا الخلق العظيم، والمعشر اللطيف وشدة الإحسان للزوجات؛ نرى حب رسول الرحمة ﷺ لزوجته خديجة رضي الله عنها التي كانت أكبر منه بخمسة عشر سنة، فما أرق كلماته في حقها وعرفانه لجميلها وهو يقول بعد موتها: "أمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبتني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس" (أحمد بن حنبل، حديث (24864)، 41: 356)، وكان الرسول ﷺ يبزها في حياتها وبعد موتها ببرّ صديقاتها.

علمنا حبيب الله ﷺ أن المعاشرة بالمعروفٍ تحتاجُ إلى رفقٍ وأناةٍ وحلمٍ، والحليمُ من تسبُّقِ رحمتهُ غضبهُ، والأناةُ هي الثبُتُ وعدمُ الاستعجالِ والتصرفُ بحكمةٍ فقد قال رسولُ الله ﷺ: "يا عائشة، لم يدخل الرفق في شيء إلا زانه ولم ينزع من شيء إلا شانه" (أحمد بن حنبل، مسند أحمد، حديث (13531)، 21: 167). فالإنسانُ الذي يتعاملُ برفقٍ يعتادُ هدوءَ الأعصابِ، ويكسِبُ راحةَ البالِ، ويوصل ما يريد لغيره بوعي وتؤدّة ولطف، وهذا أدعى للنجاة من سوء التفاهم وحبائل الظنون المريضة.

علمنا حبيب الله ﷺ فقال: "لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقًا رضي منها آخر" (أحمد بن حنبل، مسند أحمد، حديث (8363)، 14: 99). ومعنى لا يفرك مؤمن مؤمنة أي لا يقع منه بغض تام لها، فإن وجد الرجل في المرأة خلقًا يكرهه فليتذكر أنه وجد فيها خلقًا مرضيًا غيره.

وبعد هذه التعاليم السامية ماذا يقال فيمن نصر المرأة وجعل الأم الأحق بحسن صحبة ولدها الذكر، وجعل خير الرجال من أحسن لزوجته؟
سنقول: شكراً رسول الله جزاك الله عن أمتك خيرًا.

الخلاصة:

الإسلام دين يعلو ولا يُعلَى عليه، والمشكلة في من يطبق بطريقة خاطئة أو يفهم بطريقة خطأ التعاليم التي علمنا إياها سيدنا محمد بحاله ومقاله، والمنصف لا بد له أن يقول بعد النظر في حال المرأة في شرع الله الحكيم إن رسول الله ﷺ هو المدافع الأول عن حقوق المرأة.

أهم النتائج:

- الحرية لا تعني التحرر من كل القيود، بل لا بد لها من حدود، وإلا انقلبت من حرية فردية إلى ظلم وعدوان، أو فجور وعصيان.
- التفلت لا يسمى حرية عند العقلاء، وشريعة الغاب لا تصلح للمجتمعات البشرية.

توصيات:

- أرى الحاجة الملحة للتأسي برسول الله ﷺ في تعامله مع الصغار والكبار، مع الشيوخ والشباب، مع النساء والذكور، مع كبار القوم ووضعائهم، لذا أوصي بإفراد كل جزئية من هذه التعاملات ببحث خاص شامل كامل يعكس حقيقة حاله عليه الصلاة والسلام مع فهم معمق لأهداف تصرفاته وتحليل الحكم منها، لتتعلم منه ونتأسي به لصالح مجتمعاتنا الإسلامية، ونشر الوعي فيها.
- التحذير من التسرع بالحكم على الشرع الحكيم من خلال ممارسات شاذة منحرفة من قبل الجاهلين.

● المصادر والمراجع

- أحمد بن الحسين بن علي أبو بكر البيهقي، السنن الكبرى، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ.
- أحمد بن محمد بن سلامة أبو جعفر الطحاوي، شرح مشكل الآثار، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1415هـ.
- أحمد بن محمد أبو عبد الله الشيباني المعروف بابن حنبل، مسند أحمد بن حنبل، ط1، دار الرسالة، بيروت، 1421هـ.
- سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، المعجم الكبير، ط2، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، 1415هـ.
- سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني، سنن أبي داود، دط، المكتبة العصرية، بيروت، د.ت.
- عبد الله بن الزبير بن عيسى أبو بكر الحميدي القرشي الأسدي، مسند الحميدي، ط1، دار السقا، دمشق، 1417هـ.
- علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، التعريفات، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1403هـ.
- مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري، الجامع الصحيح = صحيح مسلم، دط، دار إحياء التراث، بيروت، د.ت.
- محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، الجامع المسند الصحيح = صحيح البخاري، ط1، دار طوق النجاة، بيروت، 1422هـ.
- محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم المعروف بابن البيع، المستدرک على الصحيحين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1411هـ.
- محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، سنن الترمذي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م.